عـرض لـمخطـوط المليـانـي

الأستاذ: حساني مختار

جامعـــة الجزائـــر 02

المخطوط يوجد بالمكتبة الوطنية المغربية بالرباط وهو يحتوي على نسختين من الحجم الكبير خطهما جميل لكن إحداها تعرضت للتلف بواسطة الرطوبة لكن يمكن قراءة أغلبية أوراقها فالقراءة الأولى للمخطوط توضح لنا بان المليانـي كان يحاول أن يواجه الأخطار الخارجية المحدقة ببلدان المغرب الإسلامي ومنها الجزائر حيث وقف موقفا معارضا للدول التقليدية ومنها الدولة الزيانية لتعاون هذه الأخيرة مع الجالية اليهودية وقد أشار لذلك بالتفصيل محمد بن عبد الكريم المغلي في مخطوطه الذي خصصه لعدم التعامل مع اهل الذمة ولهذا السبب نجد المليانـي يتحالف مع الأخوين عروج وخير الدين عندما استقر بمدينة الجزائر ويعلن الحرب على الدولة الزيانة مما ادى إلى سجنه في مدينة تلمسان في عهد السلطان أبو حموا موسى الثالث ثم أطلق سراحه في عهد خليفته المسعود ولعل ذلك تم بتدخل خير الدين لأن هذا الأخير تحالف مع خير الدين في المرحلة الأولى[1].

شارك تلاميذة المليانى في معركة قلعة بني راشد واستشهد أغلبهم فيها.

التعريف بالشيخ المليانى:

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الجليل ابن عبد الرضيابن المولى المرتضى ثم يصل نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم يستعرض أبناء المليانى فيقول ومن نجل الشيخ سيدي أحمد وسيدي عمر وسيدي الطاهر وهما بسجلماسة.

وهنا يجد الباحث نفسه أمام صعوبات لقلة المعلومات المتعلقة بهجرة هؤلاء من منطقة بني راشد نحو سجلماسة لأن المصادر سكتت عن ذلك ولم يقتصر على تواجد هؤلاء في سجلماسة بل نجد بعضهم في فقيق[2] وهو سيدي راشد.

ومن أولاد الشيخ المليانى سيدي الشارف وسيدي منصور.

ترك سيدي الشارف من الأولاد ثلاثة سيدي الطاهر وسيدي عبد الله وسيدي أمبة.

ولما قدم الفقيه الأجل مولانا محمد بن أمير المؤمنين.

بعده يستعرض المليانى أصول البربر وينقل مباشرة عن ما كتبه العلامة إبن خلدون فيقول: [البربر ومسكنهم الغرب من مجمع البحرين النيل والبحر الصغير إلى البحر المحيط إلى الكرد][3].

نستنتج من النص أن المليانى يعطينا ربما المناطق التي كانت للبربر قبل رحيلهم لبلاد المغرب الكبير وهي جزءا من مصر وكذلك أراضي الأكراد في كل من العراق وبلاد الشام وتركيا.

وهنا يجد الباحث نفسه أمام مشكلة الأنساب هل أن الأكراد جزءا من البربر لأن أصل أستقرار البربر كان في المشرق فالمليانى يجعل أول سلطان لهؤلاء جالوت الذي ورد ذكره في القرآن حلال الصراع بينه وبين داوود عليه السلام وفي هذا الصدد يقول المليانى: [ونصب السلطان عليهم جالوت وكانوا بالشام في زمن سيدنا داوود عليه السلام].

أما المضارب الأخرى التي وردت في النص والتي تشمل بلاد المغرب وجزءا من السودان لأن بعض القبائل السودانية أي ما يعرف اليوم بأفريقية الغربية والوسطى والشرقية ينسبون أنفسهم للقبائل الأمازيغية زيادة على الطوارق أنهم من أصول أمازيغية.

وفي نص آخر يقول المليانى عن البربر: [أن أصلهم من القبط أهل مصر وهم قبائل كثيرة ولقب السلطان عندهم بالعزيز وهم أولاد العزيز بن الوليد بن القبط بن كنعان]

نجد في النص أن المليانى ينقل الروايات دون التمحيص أو التحليل وأغلبها من كتاب العبر لأبن خلدون.

مناقب المليانى:

أورد صاحب كتاب البستان وهو الصباغ مجموعة من المناقب التي نقلها عن تلاميذة المليانى وينقل صاحب هذا المخطوط بعضها في كتابه هذا حيث يقول: [من مناقب المليانى ما تحدث عنه بعض تلاميذته بعضها من الخوارق منها هذه الكرامة التي جاء فيها: [كان له فرس من الجن دات يوم أنطقها الله بكلمة ومن بين ماجاء فيها هل أنت من خدام الشيخ سيدي أحمد بن يوسف قالت له نعم قال له البغية كيف تركتم الناس يحوجون مطامير الشيخ ولم تفعلوا شيئا قال له الجني حين أتى الناس لمطمر الشيخ في مصراتة نزلنا بمحلتنا من الصفصاف وملأنا الوعر وعزمنا عليهم أن نلقيهم في موضع لايرونا الدنيا منه فلما فتحوا المطامير رأينا فيها الحرم فارتحلنا وتركناهم يحوجونها].

يسستخلص الباحث من النص مجموعة من المعلومات:

أن هذه الفترة وهي نهاية القرن التاسع الهجري العاشر الميلادي وبداية القرن العاشر الهجري السادس عاشر الميلادي تميزت بانهيار الأنضمة في بلاد المغرب الإسلامي وزيادة نفود رجال الطرق الصوفية حيث أن العامة تركوا الأنضمة وأصبحوا موالين لرجال الطرق ومن بين هؤلاء المليانى الذي عارض الدولة الزيانيةلأعتمادها على الجالية اليهودية في أحتكار النشاط التجاري فصرح بقوله أن الدولة دولة يهودية.

أصبح أغلب الناس يثقون في هذه الكرامات التي تنسب للطرق الصوفية ولم يكن الأمر مقتصرا على ذلك العصر بل شمل العصور الموالية حتى الثورة التحريرية ظهرت في المناطق الريفية في مرحلتها الأولى كرامات نسبت للمجاهدين وكان الناس يثقون بها.

المصادر التي تعرضت للمليانى وفي مقدمتها الحسن الوزان الذي أشار إلى أمتلاك المليانى مساحة شاسعة من الأرض في المنطقة المعروفة الآن بولاية مستغانم وغليزان ومعسكر وكذلك الآلاف من رؤوس المواشي وقد تحصل عليها عن طريق الأوقاف التي خصصت لزواياه المنتشرة في المنطقة والتي امتدت لولاية سيدي بلعباس مما جعله يقوم بخزن مجموعة كبيرة من الحبوب في مطامير خاصة به[4].

إن عصر المليانى تميز باضطرابات اجتماعية تسببت فيها القبائل البدوية وفي مقدمتها القبائل الهلالية التي اقتسمت أراضي مغراوة وبني توجين في عهد الدولة الزيانية وكانت تقوم بغارات متواصلة على القبائل الضعيفة فتستولي على حبوبها وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل تتعلق بموضوع الغارات في الريف الجزائري في القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي.

وفيما يتعلق برفض الجن الوقوف ضد هؤلاء اللصوص أن جزءا من حبوب تلك المطامير جاءت ربما عن طريق الجمع بالقوة من طرف مريدي المليانى.

ثم يستعرض الكاتب علاقة الشيخ المليانى بالشيخ زروق وهو من أكبر رجال التصوف في عصر المليانى كان يدرس في بجاية فدهب له المليانى للأخذ عنه وهو ما يتأكد من هذه الكرامة حيث يقول: [قال الشيخ كنت في بجاية عند الشيخ سيدي زروق مع تلاميذته ونحن تسعة فأخدنا خبزتين كأنها خرجت من الففرن أعطاني واحدة فأتيت إلى الشيخ زروق فقال ما صنعت بالخبزة فقلت أكلتها][5].

يذكر المؤلف أن الخبز كان يأتي من مدينة فاس إلى الشيخ زروق حيث يبعث له من طرف زوجته التي توجد في تلك المدينة لكن خلال زيارتي للمغرب سألت أحد الفقهاء كان من المهتمين بالشيخ زروق فقال لي بأن الشيخ لم يبارح ضواحي فاس

حيث توجد منطقة تعرف ببجاية لحد الآن وهذا غير مؤكد لأن كل التراجم التي أرخت للشيخ زروق أشارت لوجوده في بجاية لكن وفاته لم تكن بفاس بل كانت في ليبيا التي ذهب إليها بعد استقراره وتدريسه ببجاية والخبز الذي يصله من زوجته يندرج هو الآخر في العلاقة التي تربطه بزوجته وكراماته.

كما يتناول صاحب المخطوط العلاقة التجارية بين مدينة الجزائر والغرب الجزائري وما يعرف اليوم بولاية غليزان ومعسكر حيث يقول: [ومن مناقب الشيخ أنه قال أتى رجل بدابة عليها حمل ثقيل من الجزائر إلى نهر مينا فوجده حاملا بماء الأمطار حملة عظيمة وفي ليلة شديدة البرد ولم ينقده منها إلى كرامة الشيخ المليانى][6].

نستنتج من النص أن منطقة غليزان حاليا تقع على الطريق الذي يربط وهران بمدينة الجزائر وهو نفس الطريق الذي كان مستعملا من طرف التجار في عصر المليانى ويقطع الطريق مجموعة من الأودية منها وادي مينا الذي يعتبر الواد الثاني في الجزائر بعد شلف فيمر على المنطقة ويبدوا أنه كان يصعب على المسافرين اجتيازه في فصل الشتاء عندما يحمل نتيجة لسقوط الأمطار.

ثم يستعرض الكاتب البساتين التي كانت تابعة للشيخ المليانى ونوعية الثمار التي كانت تحتويها فيقول: [صعدت يوما مع الساقية لأخذ الماء إلى جناني فدخلت بستان رجل فرأيت فيه عنقود أبيض كبير فغلبتني نفسي فأكلته فلم يراني أحد فهبطت مع الساقية وإذا بالشيخ أتى بالقرب من الجنان الذي أكلت منه العنقود فسمعت الفقراء يهجرون بالذكر][7].

نتوصل من خلال النص إلى ما يلي:

أن منطقة مصراتة وما جاورها كانت في عصر المليانى تتميز بكثرة البساتين وهذه الظاهرة نجدها في أغلب مدن الجزائر في العصور الوسطى والحديثة كانت تحيط بها غابات من أشجار الفواكه وأن سقي تلك البساتين كان يتم عن طريق الدالة حيث يجتمع المياه في سد ثم يوزع على البساتين خلال أيام الأسبوع.

ومن بين الثمار التي انتشرت في عصر المليانى الكروم التي كان جزءا منها يحول إلى خمور حسب ما ورد في كتب النوازل والرحالة والجزائر من بين الدولة المشهورة بإنتاج العنب.

يلاحظ على النص أن المليانى كان يلتقي بمريده في هذه البساتين ويقوم الفقراء بالذكر.

يذكر المخطوط أن هذه المناقب نقلت من خط الطالب علي بن العباس القرغاني في مناقب تاج الأولياء.

ومن مناقب الشيخ: [أن غازية غارت على أصحاب المليانيفإذاهو في وسط المغيرين يضرب فيهم فهزموا وتركوا المال فأخده أربابه][8].

نتوصل من النص أن كثرة الغارات في عصر المليانى جعلته يتدخل لصالح الرعية لأن الدولة تخلت عن رعيتها ولم يصبح لها دور لأن سلطة بني زيان في عصره كانت ضعيفة.

طريقة المليانى:

يورد الكتاب الطريقة الصوفية التي أخذها المليانى والسند.

يقول المليانى لأخذ الحرقة من سيدي زروق وهو لبسها من يد الشيخ سيدي أحمد بن عقبة ثم يصل إلى سيدي عبد القادر الجيلاني][9].

من خلال النص أن طريقة سيدي أحمد بن يوسف هي الطريقة القادرية.

رسائل الشيخ المليانى لعلماء عصره:

من بين الذين كتب إليهم الشيخ سيدي محمد بن يوسف المليانى سيدي محمد بن الحسن بن الحاج ومما جاء في رسالته: [أما بعد إخواني فقد غلب الجهل على أهل هذا الزمان وفشا ولم يصدق أحدهم إلا بما عليه فلهذا يسارع على كل منهم إلى التكفير والتنكير وعلى التنكير بن ما فاتهم من العلم الكثير ولقد رأيت أهل هذه النواحي مستغلين بالبغض وكثرة الفساد لأجل ماهم فيه من كثرة الجهل وقلة الرشاد ما عجب أن يكون فقهاء الوادي وأعيان البلد ينكرون على الشيخ الراشدي وما ذلك إلا من قلة عقولهم وكثرة جهلهم فالعاقل ما شغلته آخرته عن دنياه.

رسالته إلى أهل فقيق:

وما كتب به الشيخ إلى أهل فقيق إلى أخينا في الله محمد بن عبد الجبار سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته فقد انتهى إلينا مكتوبكم وعلمنا منه المقصود وعليكم بالتوكل على الله والمحبة في أولياء الله ولا تذكر بلسانك إلا الله ولا تنزع بروحك إلا الله عند ربك ولا تكن بكلام غيره لا تطأ ولا تكن لغير ربك ملاحظا فقل لكنه الله ثم درهم في خوفهم يلعبون.

رسالته لأهل فاس:

وما كتبوا به كافة أهل مدينة فاس منهم بن غازي وكافة علماء أهل مدينة فاس إلى المليانى.

جوابكم عن عشر مسائل في مخارج التوحيد.

ما حالة الله تعالى والثانية ما حالة ملائكته والثالثة ما حالة الكتب المنزلة والجامعة ما صلة الجواهر والأعراض والخامسة ما حالة دليل التوحيد والسادسة ما معنى قوله تعالى فإذا سألك عبادي فإني قريب أجيب دعوة الداعي والسابعة ما جاء في حالة المخلوقات.

رسالة لعلماء مراكش:

أوصيكم وأياي بتقوى الله العظيم في السر والعلانية والرجوع إلى الله في السراء والضراء والرضى عن الله في القليل والكثير والوقوف بالله مع الله.

رسالة لأهل مكناس:

ومما كتب لأهل مكناس بإزاء فاس الحمد لله عرف أهل خطوات عيوبهم أنفسهم وأكرمهم عن مطالعة عن وهبا وجعلهم أهل اليقظة والإشهاد إلى فقهاء مكناس وثاني عليه بعلماء فاس حفظكم الله ورعاكم بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد وصلتنا أخباركم الظهشة أنوارها وأقوالكم القصيرة عبارتها بما نكرتم به على الفقراء الذين يذكرون الله قياما وقعودا أو على جنوبكم ثم يأتي المليانى بمجموعة من الآيات تتعلق بذكر الله ثم أراء العلماء ومن بينهم عياض بن جبل رضي الله عنه قال أفضل العبد ما ينجيه من عذاب الله سوى ذكر الله وقال سيدي أحمد زروق رضي الله عنه عليك بذكر الله.

رسالة إلى أهل مراكش:

ومما كتبه إلى أهل ومن عمت عليه طريقة التقس أصحاب سيدي محمد بن سليمان الجزولي.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وقد لقي رجل من أهل مراكش ومن أصحاب الشيخ الجزولي إلى الشيخ رضي الله عنه فقال له رأيت رجلا من أصحابك يذكر الله وهو على حال المعاصي فقال له الشيخ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أمرت أن أصحوا ما سبق في علم الله فقال السائل ومالوا الدراء فقال الشيخ اسم الله الأعظم.

واعلم أن الطريقة على أربعة أقسام منهم صاحب التقبس وصاحب الخرقة وصاحب الوظيفة وصاحب الإسم الجليل.

رسالة لأهل تازة:

ومما كتب إليه لأهل تازة شرق مدينة فاس.

الحمد لله أما بعد إلى إخواننا أهل تازا وعلمائها وفقهائها عام وخاص بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد إخواننا أثبتوا الأمر من وجود أصله ستقم لكم العبادة فاستعن بالله وبأسمه العظيم[10] يكون من أهل الوفادة وأجل المولى يعطيكم بفضله المزايدة اسم الطاعة الحقيقية كنز الشريعة.

والعلم ثلاثة: الطب للأبدان والفقه للإيمان والتصوف للجنان ومجاورة الرحمان في دار القرار.

رسالته لأهل فاس:

ومما كتب به الشيخ أهل فاس:

إلى ابن غازي وكيف تنكر الذكر والذكر ينقسم إلى خمسة أقسام والخاص منها اثنين قال سيدي بن عطاء الله الأسكندري أيا شتان ما بين الذاكرين بألسنتهم والذاكرين بقلوبهم عرفوا الحق فكانوا به ناطقين.

وبعد نطلب من كمال فضلكم أن تجاوبونا على هذا السؤال الجواب الثاني وهو الحمد لله سيدي رضي الله عنكم ورعاكم ومتع المسلمين بطول حياتكم.

جوابكم الثاني على أربعة مسائل من المعرفة اضمحت العقول فأشارحها وقصرت الأوهام عن تفسيرها وهمت القلوب تقنيرها وعجز اللسان عن جوابها وهما أوجب الواجبات على عبد يريد النجات.

أولهم ذات مولانا هل هي حسية أو معنوية والباب الأخير وجود الحق سبحانه في كل مكان هل هو موجود بذاته أم لا وبقدرته وعظمه شرح لنا هل هما صفة من صفاته نقول الصفات لا تفارق الموصوف وإن كان وجوده لذاته أشرح لنا ذلك شرحا شافيا.

رسالته لأهل تلمسان:

ومما كتب رضي الله عنه إلى تلمسان منهم سيدي محمد بن موسى والشيخ القاضي البوري[11].

الحمد لله وحده وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته قد بلغ إلينا مكتوبكم وعلمنا بصنيعة أقوالكم بما أشرتم به إلينا من دال ودليل وغير دليل إليها المتعرضين.

إياكم ثم إياكم الفقراء ومخالفتهم لأن مخالفتهم سم قاتل وماء قتول وسحقا للقلوب وكونوا معهم على قدر وصونوا قلوبكم من أرياح الشكوك.

ولم تقتصر تلك الكتابات على بلاد المغرب الإسلامي بل بعث برسائل لأهل بغداد

ومما كتب به لأهل توات بإزاء تيجراريين:

الحمد لله رفع الحجوب وكشف عن الأبصار وأنوار القلوب وأخرجها من ظلمات الجهل والتقليد وقال لها هل من كف وأثبتها بلطف حكمته وأشار إلى ما أشار من مخلوقاته.

إياكم والفقراء منهم قاتل وماء قتول وصحفا للقلوب وإن كانوا جهالا فإنهم موصوفون با لإيمان وأنتم موصوفون بالنقصان.

رسالة لأهل القيروان[12]:

ومما كتب به الشيخ رضي الله عنه إلى أهل القيروان بإزاء تونس حرسها الله ونفعنا بما فيها من الصالحين.

الحمد لله وحده إلى كافة أهل القيروان عام وخاص بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته إياكم ومطاوعة النفوس فإنها من أفعال الهوام وهذه الطريق لابنا له إلا من اعتماد الأكل والفقر يكون كأني ويطرح عليها كل قبيح ومليح ولم يشعر.

رسالته لأهل قسنطينة[13]:

وماكتب به أهل قسنطينة السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته:

ما صاحب الحياة من الحياة وصاحب المشاهدة غرق في بحر الذات.

رسالة لأهل تلمسان[14]:

ومما كتب به أهل تلمسان من عبيد الله سبحانه أحمد بن يوسف إلى كافة فقهاء تلمسان العامة والخاصة قد انتهى إلينا مكتوبكم وعلمنا قصد ما أشرتم به من جهل وعلة أوغريها واتلوا حكمة الله واعلم أن النفس والهوى والشياطين كلاب من كلاب الله عز وجل إن قومتهم وخالفت مولاهم وعصيته سلطهم عليك وكثر عليك لهيبهم ومزقوا كل شيء وإن رجعت إلى مولاهم صرفهم عليك برفق وإلى ذلك أشار الشيخ ابن زيد رضي الله عنه.

وهنالك رسائل أرسلها لمصر.

الهوامش:

1- دخل عروج وخير الدين مدينة الجزائر في سنة 1516 للدفاع عليها بعد احتلال الأسبان إحدى الجزر المقابلة لها وتهديدهم لأمنها اتفق علماء الجزائر وأعيانها على استدعاء الأخوين من مدينة جيجل لمزيد من المعلومات انظر غزواوة عروج وخير الدين حقق من قبل الدكتور دراج بالاعتماد على مجموعة من النسخ.

2- فقيق مدينة مغربية مجاورة لمدينة بني ونيف بولاية بشار.

3- مصراتة توجد بليبيا وتوجد أيضا بالجزائر بالقرب من قلعة بني راشد التابعة لولاية غليزان.

4- أغلب أراضي غليزان في عهد المليانى كانت أوقاف على زاويته.

5- عن الكرامات انظر الصباغ مناقب الشيخ المليانى توجد منه نسختين بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

6- أن ظاهرة ألنقاء صاحب الطريقة بطلابه خارج الزاوية كانت معروفة لدى الجزائريين حيث أشار ابن مريم إلى علماء تلمسان أنهم كانوا يصحبون طلابهم عندما يذهبون لخدمة مزارعهم ويدرسونهم بها.

7- يعطينا نوع الأشجار المثمرة التي وجدت بالجزائر في عصر المليانى.

8- عرفت الجزائر خلال القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجريين الخامس والسادس عاشر الميلاديين أزمة اجتماعية تمثلت في الغارات التي كانت تقوم بها القبائل البدوية وعلى الخصوص قبائل بني هلال لمزيد عنها أنظر المازوني الدرر المكنونة في نوازل مازونة أشار لبعض منها في نوازلها واعتبر محاربة هؤلاء جهاد في سبيل الله.

9- أول من أدخل الطريقة القادرية للجزائر هو الغوث سيدي بومدين شعيب الأندلسي حيث قام بتدريسها في بجاية ومنها انتشرت في بلدان المغرب الإسلامي بواسطة مريديه وانتقلت لغرب أفريقية أو ما كان يعرف بالسودان الغربي بواسطة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

10- هو مصطلح معروف لدى الطرق الصوفية.

11- لم نتمكن من معرفة هذا القاضي الذي ربما تولى القضاء في المرحلة الأخيرة من حكم الدولة الزيانية.

12- القيروان من أهم المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى لمزيد من المعلومات عنها أنظر المالكي رياض النفوس ج 1 والثاني.

13- لم يحدد في كتابه لمن أرسل رسالته ولعل المقصود منها محاولة نشر طريقته المعروفة بالطريقة اليوسفية.

14- يبدوا من النص ان المليانى كان قد سبق أن بعث برسالة لفقهاء تلمسان وربما كانت تنص على عدم التعامل مع بني زيان لكنه لم يحدد لنا تاريخ إرسالها ولعلنا في المستقبل سنطلع عليها خلال تنقيبنا لمخطوطات علماء الجزائر.